العربيَّةُ أُمُّ اللُّغاتِ ، مفهوماً وتأصيلاً وأثرُ القرآن الكريم فيها

م.د. محمَّد علي عبد الله حسين
المديرية العامة لتربية الرصافة الأولى
mmma86763@jmail.com

Arabic is the mother of all languages, in terms of understanding and rooting, and the impact of the Holy Qur'an on it

Dr. Muhammad Ali Abdullah Al-Anbaki
almudiriat aleamat litarbiat alrasafat al'uwlaa

المُلَّخصُ :

ثمة ارتباطٌ وثيق بين القرآن واللغة على أساسٍ متين وعلاقة تبادل ما بين العطاء الذي لا يَنْضَب والديمومة المستمر إلى قيام الساعة ، قال تعالى : ﴿ **قرآناً عَرَبِيّاً غَيْرَ ذي عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ** ﴾ [الزمر:٢٨] وقوله تعالى : ﴿ **بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ** ﴾ [الشعراء:١٩٥] وهكذا قد حفظ الله تعالى كليهما بارتباطهما الوثيق الذي لا ينفكّ أبداً ، وهذا يجعلنا نبحث عن سبب السرّ من وراء خلود اللغة من الاندثار ! يبدو أنّه القرآن الكريم وأثره البالغ في حياة الأمة ، إذْ جعلها من أُمَّةٍ بائسة إلى أُمَّةٍ عزيزة قوية بتمسكها بالقرآن واللغة إلى يومنا هذا.

الكلمات المفتاحية (اللغة، المفهوم ، أثر القرآن)

أولاً : اللُّغة العربية ، المصطلح والمفهوم :

المعنى اللغويّ :

ورد في (لسان العرب) لابن منظور قوله : " إنَّ (اللُّغة) من لَغَوْتَ ، وهو ما تكلّمتْ به الأُمة من النّاس على اختلاف ألسنتهم . وأصلُ (لغةٍ) هو (لغوةٌ) فحذفت اللامُ وجُعِلَتْ الهاءُ عوضاً منها ، قال تعالى : ﴿ **وإذا مَرُّوْا بِاللَّغْوِ مَرُّوْا كِرَاماً** ﴾ [الفرقان:٧٢] . وهذه اللغة في من حيث اشتقاقها ودلالاتها تجري على كثيرٍ من ألسُن أهل العربية ، إذ ذهب جمعٌ من العلماء إلى أنَّها منقولة من لغات أخرى غير العربية ويراد منها الكلام واللغة التي تعبر عن أغراض المجتمع "[١] .

ثم أوردوها بمعنيين : الأوَّل : الآلة ، التي من خلالها يصلُ بها الإنسان إلى مبتغاه ؛ ومنه ورد قوله تعالى : ﴿ **أَلَمْ نَجْعَل لَّهُ عَيْنَيْنِ ولِسَانَاً وشَفَتينِ** ﴾ [البلد:٧-٨] . والآخر : اللُّغة ، وعبّر عنه بقوله تعالى : ﴿ **وما أرسَلْنَا مِنْ رَسولٍ إلَّا بِلسانِ قَوْمه لِيُبيّنَ لهم** ﴾[إبراهيم:٤] وقوله تعالى : ﴿ **وهذا كِتَابٌ مُصدَّقٌ لِساناً عربياً** ﴾ [الأحقاف:٢١] .

المعنى الاصطلاحي :

إنَّ المتابع لتحديد مفهوم اللغة قديماً وحديثاً يجد أنَّ هنالك اختلافاً واضحاً في تحديد مفهومها الاصطلاحي ووضع لها تعريفاً مانعاً جامعاً ، وربما يعود سبب ذلك إلى ارتباط اللغة بكثير من العلوم الأخرى ؛ ولكنَّ العلماء القدامى ذكروا لها بعض التعريفات ومنهم ابن جنّي (ت٣٩١هـ) إذ يرى في تعريف اللغة : " بأنّها أصواتٌ يُعبِّر بها كلّ قومٍ عن أغراضهم " [٢] . وقد أكَّد ابن جنّي في مفهومه هذا على جملةٍ من الأصول المهتمة وهي أنَّ اللغة ظاهرة صوتية اجتماعية تؤدي دورها ؛ وهي أداة للاتصال المباشر بين كلّ فرد من أفراد المجتمع الواحد ويكون ذلك باختلاف تواصل الفرد .

وعند الوقوف على رأي عبد القاهر الجُرجانيّ في تعريفه للغة فهو يصفها بأنَّها نظامٌ قائم على الروابط والعلاقات الذي يُسند بعضها إلى بعض عبر تركيب أساسه الإسناد الذي يؤدي بدوره إلى إيصال اللغة [٣] . ومن المحدثين اللغوي فرديناند دي سوسير فقد عرَّفها بأنّها رموز صوتية اصطلاحية تكمن في أذهان الجماعات اللغوية ، عبر تحقيق التواصل سماعاً بين أفرادها المجتمع الواحد [٤] .

والذي يبدو واضحاً من التعريفات السابقة للُّغة وعلى الرغم من محاولاتهم وجهودهم في تحديد مفهوم محدد للُّغة بين جامع ومانع ، فهم يختلفون كثيراً ولكنّهم يتفقون على أنَّ مفهوم اللغة هي أصوات ووظيفتها التعبير عن الأغراض والحاجات لكل فرد .

ثانياً : أهم الخصائص والوظائف التي انمازت بها اللغة العربية عن غيرها من اللغات :

١. الخصائص الصَّوتية :

وهذا يبدو واضحاً في معنى حرف (الغين) فهي تفيد الخفاء والجيم تفيد معنى الجمع . فالخصائص الصوتية يترك فيها جميع اللغات ؛ ولكنّها في العربية لها قيمتها ومكانتها الخاصَّة ، حيث الاهتمام الأكثر بها من قبل العلماء ، وهذا لا يخفى على العرب والمسلمين أنّهم كانوا أصحاب سَبقٍ وريادةٍ للجانب الصَّوتي .

٢. خصائص الاشتقاق :

تشترك الكلمات مع مادتها ومعناها وهي ليست بمعزلٍ عن غيرها ، وهو ما ميّز اللغة العربية عن سواها من اللغات بأنّها لغة اشتقاقية ، فالفعل (كتب) يُشتقّ منه على (كاتب ، ومكتوب ، وكتابة ، وكتّاب) ، فالاشتقاق هو ولّاد لكثير من الألفاظ التي بدورها ترجع إلى أصول واحدة . وهذا ما جعل اللغة العربية مرتبطة بحاضرها وماضيها فتختلف عن اللغة الإنجليزية من جيل إلى آخر . [٥]

٣. من خصائصها الإعراب :

وهو من أهم خصائص اللغة وبه يُعرف الخبر الذي هو أصل الكلام ، ومنه يُعرف الفاعل والمفعول به ولولاه ما ميّز المضاف من المنعوت والتعجب من الاستفهام ، لأنّنا نجد أحياناً أنّ المعنى يتوقف على معنى الإعراب ، من ذلك قوله تعالى : ﴿ **إنّما يَخْشى اللهَ مِنْ عبادِهِ العُلماءُ** ﴾ [فاطر:٢٨] . وقد لا تقتصر وظيفة الإعراب على أواخر الكلمة فحسب ، بل تشمل أوائلها وأوسطها مثل (أكَلَ ، أُكِلَ) فالعرب يفرّقون بين المعاني والحركات ويعطون أمثلةً على ذلك نحو صيغة (مِفْتح) بكسر الميم للآلة التي يتم الفتح بها ، و(مَفْتح) بفتح الميم لمكان الفتح .

٤. خصائص الترادف والسهولة :

أمَّا الترادف فيها فيعني ذلك تعدّد الألفاظ لمعنى واحد ، أو هو تعدُّد المعاني للفظ واحد ، وهنالك أسباب حقيقية لوقوع الترادف وكثرة المفردات المترادفة في اللغة ، منها : احتكاك بعض لغة أهل قريش باللهجات العربية الأخرى ، أدّى ذلك إلى انتقال طائفة كبيرة من مفردات هذه اللهجات إلى اتساع رقعة الترادف . أمّا خصائص السهولة ، فقيل بأنّها لغة وردت هجائية ؛ لذلك يسهل إملاؤها على الفرد . وتتجلى سهولتها في تصريف الأفعال الثلاثية وهي تقتصر على الماضي والمضارع والأمر .

أمَّا وظائف اللغة فمنها على سبيل الذكر لا الحصر :

١. **وظيفة نفعية** : أي باستعمال اللّغة يستطيع الفرد أنْ يُشْبِعَ حاجاتُه الآنية ويعبّر عن رغباته وتطلعاته من خلال هذه الآلة النفعية ويطلق عليه بعبارة (أنا أُريد) .

٢. **وظيفة تنظيمية** : ويُقصد بها وظيفة (أفْعل كذا) ، و (لا تفعل كذا) ؛ ولوجود اللغة يستطيع الإنسان أنْ يتحكّم في سلوك الفرد ، ويكون ذلك في وضع اللافتات وما تحمل من توجيه وإرشاد .

٣. **وظيفة تفاعلية** : وتُسمى وظيفة (أنا وأنت) ، ومفادها أنّ استعمال الفرد للغة يمكّنه من التفاعل مع الآخرين في سياق المجتمع باعتبار أنْ الإنسان خلقٌ اجتماعي لا يستطيع أنْ يفرّق مجتمعه ، ولهذا تكون اللغة أداة لتقديم التهاني في المحافل والمناسبان والتأدب مع الآخرين .

٤. **وظيفة شخصية** : باستعمال اللغة يستطيع الإنسان أنْ يقدّم أفكاره الشخصية والفردية نحو مواقف معينة ، ومن خلاله يقدم أفكاره للآخرين .

٥. **وظيفة تخيلية وإخبارية** : ويكون ذلك باستعمالهم اللّغة في مجال نسج الأشعار والأغاني التي بها يشحذُ الإنسان همتّه وتدفعه إلى الإبداع والتطور . أمَّا الوظيفة الإخبارية أو ما تسمى الإعلامية بها يستطيع الفرد أنْ ينقل معلومات جديدة إلى الأجيال المتعاقبة وإلى العالم كلّه .

ثالثاً : ما أثر القرآن الكريم في اللغة ؟ وما تلك الملامح التي أثرَّت فيها ؟

لقد كان القرآن الكريم فضلاً عن أنَّه كتابُ تعبّدِ وتلاوةِ ومصدراً عظيماً لكثير من العلوم ومنها علم النحو ، حيث أخذ النحويون منه مادةً لاشتقاق قواعدهم وتطبيقها ، لذا لا نجد عجباً في أنْ يكون القرآن الكريم مصدراً عظيماً للغة العربية من خلال نحوها وصرفها وألفاظها ؛ وسبب ذلك كلّه يعود إلى قداسته التي لا مجال للشّك فيها تُعطي لمصدريته سمة السلامة الثابتة المطرّدة [٦] .

وتجد أنَّ للقرآن الكريم أسلوب بديع يخالف ما ألفَ العرب من تسجيع وترّسل وهو السهل الممتنع والمعجزة الأولى التي يحتفي بها المسلمون في مشارق الأرض ومغاربها وقد وصفه الباقلاني بقوله : " إنَّه عن الصنعة المتكلفة وهو قريبٌ إلى الإفهام يبادر معناه لفظه إلى القلب ، ويسابق المغزى منه عبارته إلى النفس وهو مع ذلك ممتنع الطلَّب عسير المتناول " [٧] .

والآن يمكن لنا أنْ نصوغ سؤالاً ، وهو ما مدى تأثير القرآن الكريم في اللغة ؟ وما نوع هذا التأثير وكيف ؟ أقول : ليس الأثر الذي أحدثه القرآن الكريم في لغة العرب بأقلَّ شأناً من الذي أحدثه القرآن في العرب أنفسهم ؛ بمعنى أنَّ اللغة بوصفها مظهراً اجتماعياً هي مرآة المجتمع ؛ لذلك فهي ترقى برقيه وتنحط بانحطاطه ، وبفضل القرآن ارتفعت العربية وارتقتْ لغتها . وبعبارة أخرى إنّ القرآن هو الذي أخرج العرب فعلاً وشقّ لهم طريق المجد ومهدَّ للغتهم سُبل النجاة والسؤدد [٨] .

وهذه هي أهم النقاط التي أثرَّ القرآن بها في اللغة على النحو الآتي :

أولاً : أثر القرآن في تنمية وتهذيب ألفاظ اللُّغة :

إنَّ القرآن الكريم فضلاً عن أنّه نقل العرب من جَفَاء البَداوة إلى يُسر الحضارة ونُعومتها ، فقد تخيّر لألفاظه أجملَ وأرقّ ما تخف به نطقاً في الألسُن وقرعاً للأسماع ، فضلاً عن ذلك فإنّه تخيّر ما يكدّ الألسَن ويرهقُها من الألفاظ ؛ لذلك تراهم قد عكفوا عليه يتدبرونه ويستمعونه وذهبوا إلى أكثر من ذلك بأنْ وضعوا قواعد علوم البلاغة . وهناك آثارٌ أبعد من ذلك أحدثها القرآن الكريم في اللغة والأدب العربي ، منها تنمية (ملَكة النقد الأدبيّ) وذلك أنّ العرب كانت لهم أسواقهم المشهورة ، فلمّا نزل القرآن ولامس شغاف قلوبهم ورقّتْ له أحاسيسهم نقلهم من الفصيح إلى الأفصح ، ومن الجيّد إلى الأجْوَد ، ذلك هو القرآن الكريم بإعجازه وأسراره ، وبهذا التأثير على العرب ولغتهم نقلهم من البداوة إلى الحضارة ومن الذلّ والهوان إلى الرفعة والشموخ ومن الوحشي والغريب إلى السهولة واليُسر ومن العامية إلى الفصحى [٩] .

ثانياً : القرآن الكريم يحافظ على اللغة من الاندثار والضياع والإبقاء عليها

ورُبَّ سائلٍ يسأل ما السرّ من وراء خلود اللغة من الضياع والاندثار ؟ فيُجابُ عنه هو القرآن الكريم بما كان له من أثرٍ بالغ في حياة الأمة ، وذلك عبر تحويلها من أُمة تائهة إلى أُمةٍ عزيزة بتمسكها بكتاب الله تعالى الذي بدوره صقل نفوسهم ، وهذّب طباعهم ، وألَّف بين قلوبهم وتحدَّاهم لقوله تعالى : ﴿ **قُلْ لَئِنْ اجْتَمَعَتِ الإنسُ والجِنُّ على أنْ يَأتُوا بِمِثْلِ هذا القرآن لا يأتونَ بمِثْلِهِ** ﴾ [الإسراء:٨٨] .

ويتضح هذا الأمر لمن تتبع اللُّغات الأخرى وما تعرضت له من انقسام واندثار وانشطار ، وعلى العكس من ذلك فإنّ لغتنا العربية ما زالت لغة تسمو في الآفاق وتنبض بالحياة وكلّه بفضل آيات القرآن الذي تكفّل بحفظها ولم يتكفّل بحفظ غيرها .

ثالثاً : أثر القرآن في تقوية اللغة والرُقي بها

نقول : هل منح القرآن الكريم اللغة قوّةً ورُقياً لم يمنحه لغيره من اللغات ؟

نعم منحها ذلك وبقوّة فأصبحت بذلك محطّ جميع الأنظار بما وهبها الله من المعاني الفياضة والألفاظ الجياشة والتراكيب الجديدة ، وغدتْ تتألق وتتباهى بهذا العلوّ والرّفعة على أخواتها اللغات . وليس هذا فقط بل اعترف بقوّتها وجمالها وسرعة انتشارها من غير العرب ، يرى أحد المستشرقين وهو كارل بروكلمان أنَّ العربية بفضل القرآن قد بلغت من الاتساع مدى لا تكاد تعرفه أيّة لغة أخرى من اللغات ، ولهذا اكتسبت اللغة منذ زمن طويل رفعة فاقتْ جميع لغات العالم [١٠] .

رابعاً : أثر القرآن في جعل اللغة العربية لغة عالمية تعليمية

لم يكن للأمة العربية في ذاك الوقت شأنٌ يُذكّر أو موقع بين الأمم ، بل لم يكن لهم حضارة أو صناعة وحتّى على المستوى السياسي والديني والاجتماعي ، فجاء القرآن الكريم ليرسم أبهى صور الجمال وما يحمله من أسس وقواعد تعليمية وأخلاقية ، ومما لا شك فيه أنّ تعلّم العربية وعلومها هو أول ما يجب على من ينضوي تحت الإسلام ؛ لذلك أقبلّ الناس عليه أفواجاً ؛ وبذلك أصبحت اللغة العربية لغة عالمية لا يحدها فاصل ومانع .

أمّا في مجالها التعليمي فمن المعروف أنّ العرب قبل نزول القرآن كانوا يجرون في كلامهم وأشعارهم على السليقة ، فهم لا يملكون تلك القواعد النحوية المعروفة اليوم ، ولمّا دخل الناس في دين الله أفواجاُ احتك العجم بالعرب فافسدوا عليهم لغتهم ، وفشا اللحن في قراءة القرآن الأمر الذي أدى إلى وضع قواعد النحو وضبط حركات الحروف والكلمات في المصحف ؛ وهكذا أصبحت اللغة العربية تكتسب بالتعليم والتعلم .

خامساً : أثره في إثراء اللغة العربية بمفاهيم إسلامية

لقد استحدث القرآن الكريم مفاهيم جديدة ، وهو ما يعرف بالألفاظ الإسلامية ، ومن هذه المفاهيم ما يأتي :

أ. مفهوم الإيمان : سابقاً يُعرف بالتصديق مطلقاً ، ثم تحوّل إلى المعنى الشرعي وهو (أنْ تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر) .

ب. مفهوم الكفر : وكان بمعنى الستر مطلقاً ، ثم صار له المعنى الشرعي (تكذيب الرسول (ﷺ) في شيء مما جاء به) .

ج. الصّلاة : كانت بمعنى الدعاء مطلقاً ، ثم أصبح لها المعنى الشرعي المعروف .

د. الزكاة : كانت بمعنى النماء مطلقاً ، وبقي لها المعنى الشرعي (القدر الواجب إخراجه لمستحقيه في المال الذي بلغ نصاباً معيناً بشروط مخصوصة .

هـ. الحج : وهو بمعنى القصد مطلقاً في اللغة ، وصار بمعنى (القصد إلى بيت الله الحرام لأداء أفعال مخصوصة) . فضلاً عن ذلك هنالك بعض الألفاظ الاصطلاحية التي نشأت في رحاب المفاهيم الشرعية مثل (الفقه ، والتفسير ، والنحو ...) .

المصادر والمراجع

(١) فقه اللغة وخصائص اللغة : صلاح راوي ، دار الهاني للطباعة والنشر ، ١٩٩٣م

(٢) الخصائص : ابن جنّي ، أبو الفتح عثمان (ت٣٩٢هـ) ، تحقيق : محمد علي النجّار ، دار الكتب المصرية ، ١٩٥٥هـ – ٢٠٠٠م .

(٣) دلائل الإعجاز : الجرجاني ، عبد القاهر بن عبد الرحمن (ت٤٧١هـ) ، مكتبة الخانجي بالقاهرة ، مطبعة المدني .

(٥) خصائص العربية وطرائق تدريسها : حبيب غزالة ، القاهرة ، المطبعة العصرية ، مصر ، ١٩٣٥

(٦) ضحى الإسلام : أحمد أمين ، القاهرة ، ١٩٥٤ ،

(٧) إعجاز القرآن :الباقلاني ، تحقيق : أحمد صقر ، دار المعارف ، مصر .

(م) أثر القرآن والقراءات في النحو العربي : د. محمد سمسر نجيب الّبدي ، دار الكتب الثقافية ، الكويت ، ط١ ، ١٩٧٨م.

(٩) تأثير القرآن الكريم في اللغة العربية : د. حامد تشوى ، د. نجوى خلف ، .

(١٠) تاريخ الأدب العربي : بروكلمان ، تحقيق : د. عبد الحليم النجار ، جامعة الدول العربية ، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم ، دار المعارف ، ط٥ .

طرائق تعليم اللغة العربية : محمد الخطيب ، الرياض ، مكتبة التوبة ، ٢٠٠٣م .